الفصل السابع

الاحتــــلال البريطـانى

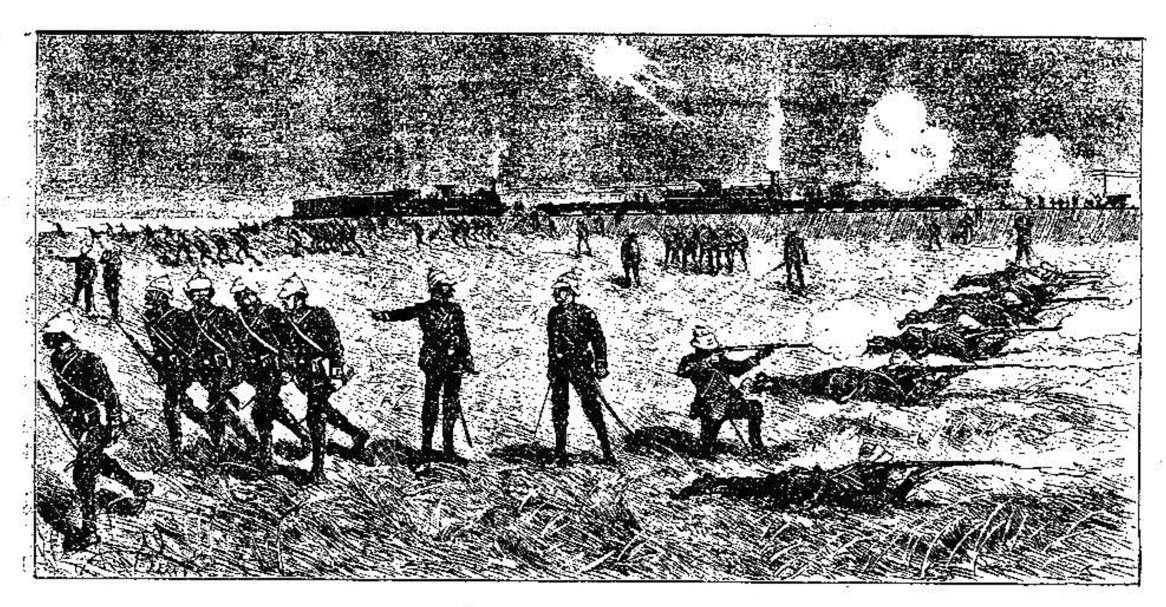
مقدمات القتال . الخديو وعرابى بعد الاحتلال . العرابيون يبثون دعوتهم داخل البلاد . الاضطراب فى أنحاء القطر . قدوم الجيوش الانجليزية البرية . السلطان يعلن عصيان عرابى . نظارة شريف باشا مسألة حياد قناة السويس . القتال فى منطقة القناة . تصريح جلادستون واقعة التل الكبير . احتلال القاهرة .

مقدمات القتال . احتلت العساكر الانجليزية البحرية مدينة الاسكندرية فى يوم ١٣ يوليو ، بعد انسحاب العرابيين منها الى عزبة خورشيد ، وتركها للحريق والنهب .

وكنا ننتقد الأميرال سيمور ، فى أحاديثنا الخاصة ، لعدم مبادرته لاحتلالها بعد تخريب طوابيها واستحكاماتها . فقد كان فى وسعه ، لو أنه عجل باحتلال المدينة ، أن يحول بقواته دون أعمال الحرق والنهب .

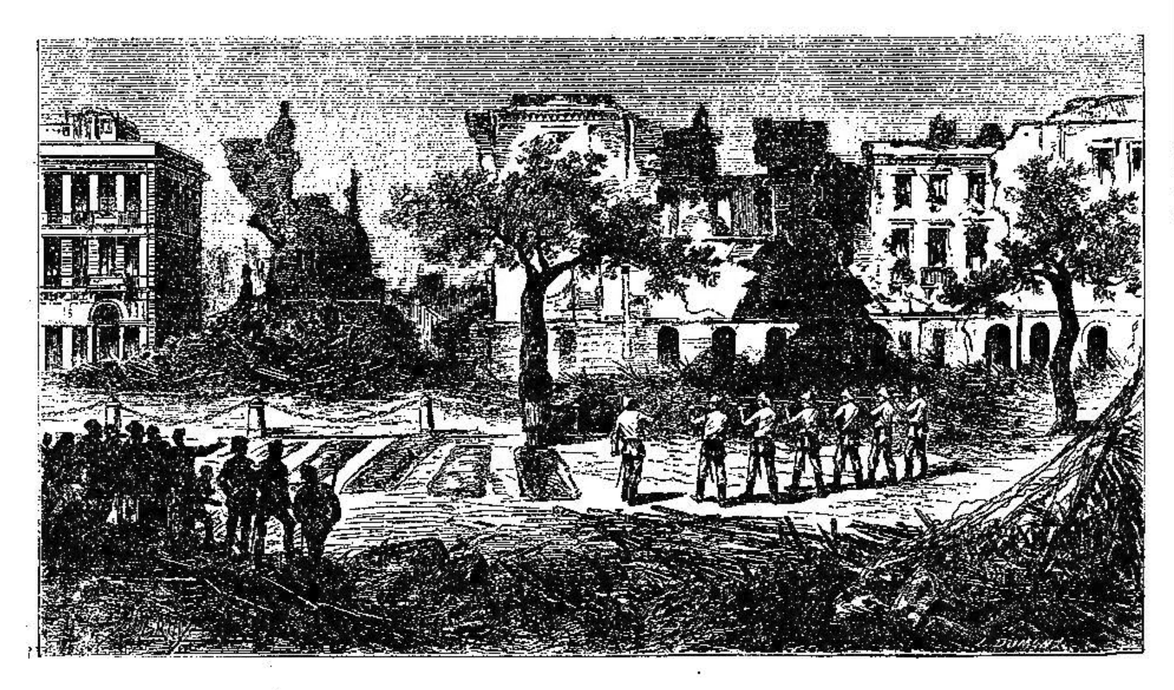
ثم أنزلت بعض البواخر الأجنبية ، وفى مقدمتها البواخر الأمريكية ، بحارتها لاخماد النار وحفظ الأمن . ولم يصرح للاهالى بالخروج ليلا ، إلا لمن كان لديه «كلمة السر» ، وهى كلمة مصطلح عليها ، فاذا مر أحد الأهالى بنقطة فيها جندى انجليزى ورآه يصوب بندقيته نحوه قال له : «آمين» فيسمح له بالمرور

وتحصن العرابيون فى كفر الدوار ، لأنهم اعتقدوا أن الانجليز سيهاجمونهم فيها ، وهنالك أقام محمود باشا فهمى المهندس ناظر الأشغال استحكامات متينة ، تمتد من ترعة المحمودية الى أرض الملاَّحة ، يحميها خندق عرضه أربعة أمتار . وكان الانجليز يناوشون مركزهم الأمامى فى عزبة خورشيد . وأذكر أن الخديو وبعض الحاشية توجهوا بدعوة من الانجليز الى حديقة أنطونيادس المطلة على المحمودية، فصعدنا الى مكان عال ، وشاهدنا قاطرة انجليزية مصفحة وفيها بعض الجنود برشاشاتها وبنادقها ، فتقدمت الى عزبة خورشيد وناوشت هناك جند العرابيين باطلاق الرصاص عليهم ، ثم رجعت دون أن يلحقها ضرر يذكر .



قاطرة مصفحة بها عساكر انجليزية لمناوأة العرابيين

وفى ١٧ يوليو أعلن سيمور ، على أثر مخابرة جرت بينه وبين الخديو ، أن سموه قد عهد إليه مؤقتاً بحفظ الأمن والنظام ، وأن الأوامر صدرت للجنود الانجليزية باطلاق الرصاص على كل من وجد متلبساً بجريمة النهب أو الحرق . وناشد السكان الوطنيين والأجانب أن يعاونوه على توطيد النظام . وقد قتل فعلا غير واحد من الذين حرقوا أو نهبوا .



إعدام أحد النهابين فى ميدان محمد على « المنشية » بالأسكندرية

الخديو وعرابى بعد الاحتلال . وكتب الخديو الى عرابى ، فى كفر الدوار يوم ١٧ يوليو، ينبئه بأن الأميرال أعلن أن الحكومة الانجليزية لا تضمر العداء لمصر ، وأن إطلاق النار على الطوابى والاستحكامات إنما وقع بسبب ما وجه الى الأسطول من التهديد والاهانة ، وأنه اذا كان لحكومة الخديو جيش منظم يؤمن جانبه فلا يتأخر عن تسليمه الاسكندرية ، وأنه ينسحب بلا تردد اذا وصلت العساكر الشاهانية . ومن ثم فانه يجب عليه أن يصرف النظر عن جميع الجنود والمعدات الحربية ، وأن يحضر حالا لتلقى التعليمات ، ولتنفيذ القرارات التى تصدر من مجلس النظار

فرد على ذلك عرابى بأنه متمسك بقرار المجلس الذى عقد فوق العادة برياسة سموه وبحضور درويش باشا ، وقضى برفض مطالب الأميرال ، لأنها مجحفة بحقوق الوطن ، وبوجوب زيادة الجيش الى خمسة وعشرين ألف جندى ، وأن الأوامر قد صدرت بذلك الى المديريات ، وأعلنها رئيس النظار كما أعلن أيضاً نشوب الحرب بيننا وبين الانجليز، وأن البلاد وضعت تحت الأحكام العرفية . وأنه مع كل ذلك اذا كان الأميرال لا يزال راغباً فى الصلح ويريد تسليم المدينة ، فان جيش الحكومة المنظم مستعد لاستلامها بعد أن يغادر الأسطول الانجليزى المياه المصرية ، لأنه لا ثقة له بوعود الانجليز . وأنه كان بوده أن يمثل بين يدى سموه ، لولا احتلال الانجليز للمدينة . والتمس مجىء النظار ، أو على الأقل رئيسهم ، الى مركز قيادة الجيش فى كفر الدوار للمفاوضة فى هذا الأمر .


يعقوب باشا سامى

وقد علمنا أن عرابى كتب فى نفس الوقت الى يعقوب باشا سامى وكيل الجهادية ، وهو فى القاهرة ، يشرح له ما حدث قبل ضرب الاسكندرية وبعد احتلالها ، طبقاً لوجهات نظره . جاء فى رسالته :—

« إن الذى أوقعنا فى هذا البلاء هو الخديو نفسه ، بدليل أنه انتهز فرصة انصرافنا الى إعداد معدات الدفاع فأمر راغب باشا أن يذيع منشوراً فى البلاد يحث فيه سكان الأسكندرية على العودة إليها وعدم مساعدة الجهادية ، بحجة وقوع الصلح »

ثم طلب فى رسالته هذه عقد مجلس فى نظارة الداخلية ، من أعيان البلاد وعلمائها ،

لبحث هـذه الأمور ، والنظر فيما اذا كانت أعمال توفيق باشا مطابقـة للشرع ، وفيما اذا كان يصلح والحالة هذه لحكم البلاد .

وفى ١٧ يوليه عقد فعلا هذا المجلس تحت رآسة حسين باشا الدره مللى وكيل نظارة الداخلية ، وقرأ على المجتمعين خطاب عرابى السالف الذكر ، وبعـــد المناقشة أصدر القرارات الآتية : —

(١) استمرار التجهيزات الحربية

(٢) طلب حضور الخديو والنظار الى العاصمة

(٣) تشكيل وفد للذهاب الى الاسكندرية وتبليغ الخديو قرارات المجلس

ثم عهد الى ستة من الحاضرين بالذهاب الى الاسكندرية وتبليغ الخديو ذلك . وهم على باشا مبارك ، رئيسه ، ورؤوف باشا من الأعيان ، واحمد بك السيوفى ، والشيخ سعيد بك الشماخى ، من التجار ، والشيخ على نايل ، والشيخ احمد كبوه ، من العلماء . فلم يحضر للاسكندرية من هذا الوفد سوى رئيسه واحمد السيوفى بك ، لأنه لما وصل الوفد الى كفر الدوار رؤى الاكتفاء بهما دون بقية المندوبين

وبعد وقوف الخديو على تفاصيل ما حصل فى اجتماع ١٧ يوليو ورغبة منه فى إيجاد حل لتهدئة الحالة كلف على باشا مبارك أن يرسل رسالة الى عرابى يقول فيها : — « إن المندوبين الذين غادروا القاهرة معنه لم يجيئوا الى الاسكندرية إلا للبحث فى المسألة ومخابرته بشأنها بواسطة التلغراف . وأنه تقرر تأليف مجلس منه (على باشا مبارك) ومن بعض أعيان الاسكندرية ، ومن الذين يعينهم عرابى من الأمراء العسكريين ، ليجتمعوا فى مكان معين لأجل البحث فى الحالة الحاضرة ، والوصول الى نتيجة يرتاح إليها الجميع وتنقذ الوطن من الكارثة التى حلت به »

فأجاب عرابى على هـذا الخطاب : — « إنه سبق أن تألف مجلس فى القاهرة من رجال الجندية والملكيين والعلماء والتجار والأعيان والرؤساء الروحانيين ، وكنتم سعادتكم فى جملة الذين اشتركوا فيه ، ولذلك لم يعد لى صفة أو حق فى تعيين أعضاء لتأليف مجلس آخر لا أدرى الغرض منه ، على أنه لا يسعنى الاستقلال بالأمر دون الأمة ، فأنا رهين أمرها وإشارتها . ولذلك فانى آسف لعدم تمكنى من إجابة سعادتكم الى طلبكم هذا . . . الخ »

فأصدر سمو الخديو فى ٢٠ يوليو أمراً عالياً بعزل عرابى جاء فيه : —

« ان خروجك من الاسكندرية بعد القتال البحرى الذى جرى فيها ، من غير أن يصدر لك أمر بذلك ، واستصحابك الجند إلى كفر الدوار ، بعد أن خربت الخطوط الحديدية ، وعطلت البريد وأسلاك التلغراف ، ومنعك لمهاجرى الاسكندرية من العودة إليها ، واستمرارك على إعداد المعدات الحربية ، وعدم قدومك الينا تلبية لأمرنا . كل ذلك دعانى إلى اقالتك من وظيفتك . فأنت معزول إذن منذ الآن بمقتضى هذا الأمر من نظارة الجهادية والبحرية »

وفى يوم ٢٢ يوليو اذيع فى الاسكندرية ، بأمر الخديو ، منشور ذكرت فيه الأسباب التى دعت إلى عزل عرابى باشا جاء فيه :— « ان نزول العساكر الأنجليزية الى البر لم يكن بقصد احتلال البلاد أو الاستيلاء عليها ، لأن مؤتمر الاستانة لم يوافق على ذلك ، وإن سمو الخديو بعث برسالة تلغرافية إلى الباب العالى ينبئه بما حصل ، وبمخالفة عرابى لأوامره »

وعلمنا فيما بعد أنه فى نفس هذا اليوم عقد المجلس العام فى نظارة الداخلية ، وأفتى الشيخ عليش ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ الخلفاوى ، وغيرهم من العلماء ، بمروق توفيق عن الدين كمروق السهم من الرَّمِية ، لخيانته دينه ووطنه . وتقرر استمرار عرابى فى المدافعة عن البلاد ضد العدو

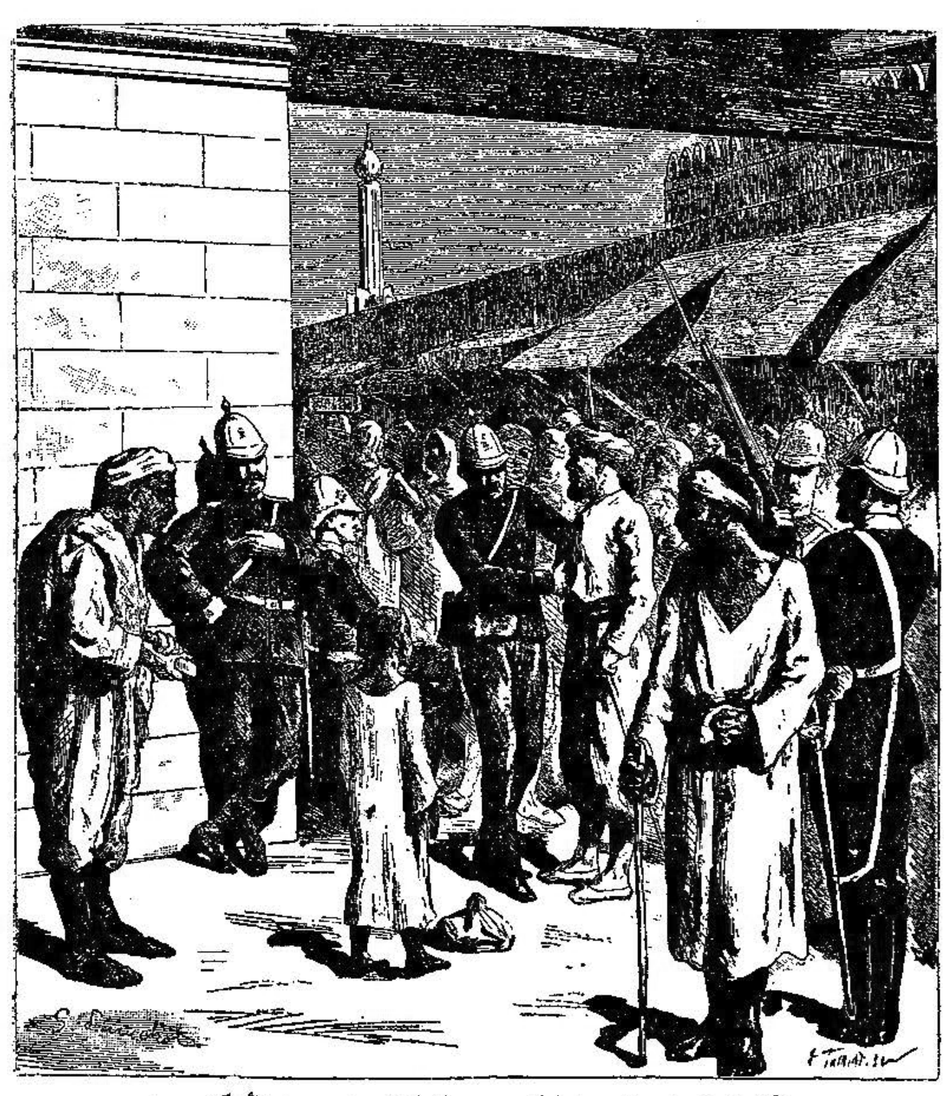
العرابيون يبثون دعوتهم داخل البلاد . أما العرابيون فى داخل القطر فقد كانوا يرمون الخديو بتهمة الخيانة والالتجاء الى الانجليز ، وأنه سجن النظار عقاباً لهم على انتصارهم لعرابى . يدل على ذلك تلغراف أرسله عرابى يوم ١٧ يوليو سنة ٨٢ الى محافظة بور سعيد وجاءت صورته لسراى رأس التين هذا نصه :—

« النظار محجوزون بطرف الخديو باسكندرية تحت ملاحظة عساكر الانجليز ليكونوا شهوداً وآلة فى أيديهم ، بها يبطلون همم المصريين ، حتى لا يقدرون على مقاومة أعدائهم الانجليز . فليكن معلوماً أن التلغراف الصادر من رئيس النظار بأبطال التجهيزات الحربية هو قهرى فلا يعتمد ولا يعول عليه . فحفظ العرض والدين والوطن لازم وواجب علينا شرعاً وذمة . وإن الحرب لم تضع أوزارها . وكل من تهاون فى تأدية واجباته الوطنية ، فضلا عن كونه يعاقب بمقتضى القانون العسكرى ، يصير ملعوناً فى الدنيا والآخرة »

ثم كتب الى محافظ بور سعيد خطاباً يشرح فيه هذا التلغراف ، ووردت صورته أيضاً للسراى ، وقد جاء فيه :— « إن الخديو . بعد أن بارحت العساكر المصرية مدينة

الاسكندرية ، انتقل الى سراى رأس التين وطلب عساكر من الانجليز للمحافظة عليه ، ونشرهم فى أطراف المدينة ، وأخــذ النظار عنده ، ومنعهم من التوجه الى مراكز إداراتهم ، لأجل أن يستعملهم فى تنفيذ أغراضه الموافقة لأغراض الانجليز ، ثم إن بعض عساكر البوليس والمحافظة ، الذين بقوا فى الاسكندرية ، تسلط عليهم الانجليز بالذبح وضرب الرصاص انتقاماً منهم ، وكلما رأوا عسكرياً يمر أخذوا سلاحه وذبحوه ومثلوا به كل التمثيل . وكل ليلة يبيت الخديو فى البحر مع نسائه بين مراكب الانجليز، وفى النهار يخرج الى البر ليأمر بذبح من يخطر من المسلمين فى شوارع الاسكندرية . »

ولم يكن لكل ذلك فى الواقع أساس من الصحة والحقيقة ان الأميرال كان قد امر بحارته بالمحافظة على الأمن فى البلد فقاموا بواجبهم وزيادة فى الاحتياط كانوا يفتشون الداخل الى الثغر والخارج منه



عساكر انجليزية يفتشون الخارجين والداخلين في مدينة الأسكندرية

ولما علم الاميرال بأن العرابيين يشيعون ان الانجليز يريدون الاستيلاء على مصر أذاع فى ٢٦ يوليو منشوراً هذه ترجمته : — « ان الأسباب التى دعت الى ضرب الاسكندرية وضحت توضيحاً جلياً بالمنشور الخديوى الذى أذيع على الأهالى بتاريخ ٢٢ يوليو . ومع ذلك فدحضا للاشاعات الكاذبة التى ينشرها عرابى وأعوانه ، قد رأينا ، نحن بصفتنا اميرال الاسطول البريطانى ، ان من الواجب علينا ان نكرر هنا ما سبق ان اكدناه لسموكم من أن حكومة جلالة الملكة لم يخطر لها فتح مصر ، ولا تريد ان تمس الدين ولا حرية الأهالى بوجه من الوجوه ، وانما غرضها حماية سموكم والأمة المصرية من الثائرين . ومن ثم فان الحكومة البريطانية عازمة على قمع الثورة القائمة ضد سموكم، ورد الامن الى نصابه، وانقاذ البلاد من عسف الضباط العاصين . وأرجو من سموكم أن تتنازلوا فتأمروا الجنود بعدم اطاعة زعماء الثورة ، والرجوع الى مواطنهم ، أو الانضواء تحت راية سموكم ، بصفتكم ولى أمرهم الاعلى ، وأن تعلنوا الأهالى بأنه يجب عليهم اعتبار عرابى وصحبه الثائرين خائنين لأميرهم ، واعداء لوطنهم ومواطنيهم »

وفى آخر يوليو علم أهالى الاسكندرية بوقوع معركتين بين الانجليز والعرابيين فى جهة عزبة خورشيد ، كانت الغلبة فيها للانجليز، فهدأت خواطرهم لانه كان قد اشيع بأن العرابيين زاحفون على المدينة

وأرسل عرابى تلغرافات للمديرين والمحافظين بأن عليهم أن يلبوا ما يطلب منهم من ارسال الجنود والنقود والمؤن .

ولما تحقق الخديو من أن عرابى لا يزال يجمع الرجال والأموال أذاع ، بتاريخ ٧ أغسطس ، منشوراً جديداً يعلن فيه عصيانه وختمه بقوله : — انه رحمة بمصر وأهلها يعلن سمو الخديو المصريين عموماً ، والجند خصوصاً ، أن كل من أصر على عصيانه وانقياده الى عرابى يعد مذنباً أثيما أمام الله وأمامنا . وحينئذ نحرمه هو وأولاده وذريته من جميع الرتب والمرتبات ومعاش التقاعد وسائر ما كان يتمتع به من الامتيازات . وليعلم المصريون أننا نحن أميرهم ومولاهم فعليهم الا يعصوا أوامرنا . وأنهم اذا أدوا شيئاً من أموال الضرائب الى عرابى أو اتباعه ضاعت عليهم جزافا »

وكان ذلك إجابة لطلب الأميرال

الاضطراب فى أنحاء القطر . ولم تأت منشورات الخديو وسيمور بالفائدة المطلوبة ، بل انقسمت الحكومة المصرية الى قسمين — قسم الحكومة الخديوية فى الاسكندرية — وقسم الحكومة العرابية فى القاهرة والأقاليم . وكذلك انقسمت الأمة

الى فريقين — فريق الخديو ، وقد لحق به فى الاسكندرية ، وفريق العرابيين . وكان ثمة فريق آخر مزيج من عرابيين وغيرهم . وفيه كثيرون ممن كانوا يناصرون الخديو باطناً ويكيدون للعرابيين سراً ولكن يتظاهرون بمناصرتهم اتقاء بطشهم

وبعد انسحاب الجيش من الاسكندرية ، وقعت مذابح فى طنطا والمحلة الكبرى وغيرهما ، من جراء اشاعة ذاعت مؤداها ان الانجليز يزحفون على تلك البلاد ، وأنهم أصبحوا على وشك الوصول اليها . فثار الأهالى على الأجانب وفتكوا بفريق منهم . ولقد أبدى كثير من المصريين فى هذه الحوادث شهامة وشجاعة وانسانية يحمدون عليها ، وواجهوا مختلف الاخطار ، لحماية الاجانب ، وكان فى مقدمة من قاموا بذلك الواجب الانسانى احمد منشاوى (باشا) (١)



المنشاوى باشا

(١) في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اجتمع لفيف من أعيان وتجار الأجانب فى فندق ابات بالاسكندرية ووقعوا كتابا رفعوه الى حضرة صاحب العزة احمد المنشاوى بك باللغتين العربية والايطالية هذا نصه : —

سعادة احمد بك المنشاوى الأفخم .

انا نحن الواضعين امضاءاتنا بذيله المستوطنين فى القطر المصرى ، والتابعين لدول مختلفة ، بناء على ما اشتهر لدينا مما أتيتم به من الاعانة والغيرة نحوسا كنى طنطا على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، قد رأينا من الواجب علينا أن نقدم لسعادتكم هذه العريضة برهانا على إقرارنا الأبدى بحميتكم ، وشكرنا الدائم لسعادتكم . وانه ليسرنا ويعزينا كثيراً ، أن نرى فى القطر المصرى ، مع ما أصيب به من النوائب ، رجالا دافعوا عن حقوق الانسانية وراعوا زمام التمدن بحمايتهم أولئك الأبرياء . فتكرموا اذاً بقبول عواطف تشكراتنا وامتناننا افندم .

وقد وصلت الى آذاننا فى تلك الاثناء ، اشاعات كاذبة أذيعت فى طول البلاد وعرضها، عن تفوق العرابيين على الانجليز وانتصارهم عليهم فى كل مكان ، وأنهم أغرقوا سفينتين حربيتين وعطلوا خمس سفن أخرى . وسمعنا أخباراً أيضاً بلغت حد الخرافات. من ذلك أنه أذيع أن دجاجة وضعت بيضة مكتوب عليها : « نصر من الله وفتح قريب » فاستدل العامة بذلك على قرب الانتصار الحاسم

وكان يقال أيضاً إن عرابى مؤيد بروح من عند الله والملائكة . وأخذ الكثيرون يفسرون الأحلام بما يوافق مصلحة العرابيين

وبلغنا أيضاً ان الخطباء كانوا فى أيام الجمع يلقون خطباً ثورية يحدثون الناس فيها بكرامات عرابى ، ويؤيدون رأى العامة الذين كانوا ينسبون لعرابى صفات سامية ومقدرة خيالية

ونمى الينا من العاصمة ، أن العرابيين كانوا يفتشون البيوت خوفاً من أن يكون فيها من يراسلون الاميرال الانجليزى

قدوم الجيوش الانجليزية البرية . فى أوائل أغسطس وصل السير جارنت ولسلى الى الاسكندرية وقوات من الانجليز والهنود ، وشرع فى وضع خطط القتال .

وشاع أثناء ذلك أن السير ولسلى صرح بعزمه على دخول القاهرة فى أواسط سبتمبر

وأصدر الخديو فى ١٤ أغسطس منشوراً الى السلطات فى منطقة القناة جاء فيه ما يأتى : — « ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس ، أن أميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام ، إنما أتيا الى مصر لاعادة الأمن والنظام إليها . ومن ثم قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى



السير جارنت ولسلى

احتلالها ما يساعد على قمع العصيان . ومن يخالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب »

وفى اليوم نفسه أصدر الأمر الآتى : — « نرخص الى حضرة الأميرال قومندان عموم قوة دولة بريطانيا العظمى فى البحر الأبيض المتوسط ، والى كافة الضباط الذين هم تحت أوامره أيضاً ، أن يتخذوا كافة الوسائل التى يجدونها لازمة لمنع استحضار فحومات ومهمات حربية ، على طول الخط الممتد من دمياط الى رشيد الكائن ما بين اسكندرية وبورسعيد . وكل من لا يمتثل لأمرنا هذا يصير ضبط الأشياء الممنوعة المذكورة فيه »

وفى ١٩ أغسطس ، أذاع السير جارنت ولسلى بأمر من الخديو ، بياناً يقول فيه :— « بناء على أمر الحضرة الفخيمة الخديوية ، نعلن المصريين بصفتنا قائد الجيش البريطانى ، أن حكومة جلالة الملكة لم تقصد بارسال جنودها الى مصر إلا توطيد سلطة الخديو . وعليه فان الجيش البريطانى يحصر عمله فى قتال الذين لا يعترفون بهذه السلطة . فالسكان المخلدون الى السكينة ، سيعاملون إذن بكل رعاية ولا ينالهم أقل أذى لا فى عقائدهم الدينية ولا فى مساجدهم ولا فى عائلاتهم ولا فى أملاكهم . وجميع المؤونة التى يحتاج الجيش إليها ، يدفع ثمنها فوراً . وللأهالى أن يقدموا العطاءات اللازمة . والقائد العام يقابل بكل ارتياح ما يسديه المأمورون من المساعدة لقمع العصيان القائم ضد الجناب الخديوى . الذى يحكم مصر بمقتضى الفرمانات الشاهانية »

السلطان يعلن عصيان عرابى . وقد ساعد الانجليز على بلوغ غايتهم فى تقصير أجل تلك الفتنة ، والظفر باحتلال مصر ، صدور إرادة سلطانية تعلن عصيان عرابى ، وكان ذلك نتيجة إلحاح السفير البريطانى فى الاستانة على الباب العالى . وكان السلطان من جهة أخرى ، قد يئس من إمكان تدخله منفرداً فى مصر ، بعد أن احتلتها الجيوش الانجليزية ، فلم يجد بعد ذلك فائدة من العطف على عرابى . فأصدر فى ٦ سبتمبر الاعلان الرسمى الآتى ننشره برمته لأهميته :— « معلوم عند الجميع ، أن خديوية مصر بموجب الفرمانات العالية والامتيازات المقررة ، مودعة من جانب الخلافة العظمى إلى عهدة واستيهال حضرة فخامتلو محمد توفيق باشا . فهو فى إدارة الأمور المصرية ، وكيل مطلق من طرف السلطنة السنية ، فأوامره مطاعة ، ومخالفته توجب على عاملها طائلة المسئولية . ومع ذلك فعرابى باشا ارتكب ذنباً بتعرضه لوظائف الحكومة ، بما هو مخالف صريحاً للأحكام القانونية ، فسلب الراحة ، وأخل بالأمن فى المملكة ، وأضاع عدداً من

الأنفس، وأضر بالأموال، ولم يقف عند هذا الحد . بل سبب تداخلا عسكرياً أجنبياً، لأنه أجبر دولة انجلترا المخلصة الوداد مع السلطنة السنية، على أن تطلق مدافع سفنها على استحكامات ثغر الاسكندرية، وكان ذلك ناجماً عن زيادة التجهيزات ووضع المدافع العديدة فى طوابى الاسكندرية، حتى أمست سفن الدولة المشار اليها هدفا لهذه التعرضات، فتسبب عنها عدم أمنية الدولة المذكورة

ومع قطع النظر عن البحث فى ما يترتب على مرتكب هذه الأمور من العقاب، فالشريعة الغراء لم تصرح بوجوب المدافعة إلا بشرط الاستطاعة . فلو تفكر لهذا الشرط الشرعى، لما قام لتنفيذ مآربه بأراقة الدماء واتلاف النفوس، وادخال القطر المصرى تحت مخاطرة مداخلات عسكرية أجنبية

والذى زاد فى المشكل ارتباكا، هو أنه بعد انهزامه من الاسكندرية، حاصر سراى الحضرة الخديوية مرة ثانية، فاضطر الأميرال الانكليزى الى اخراج عساكره للبر للمحافظة على الأمنية، فكانت هذه الحالة مبدأ المداخلات العسكرية البرية

وكان القصدمن ارسال وفدنا السلطانى، المؤلف من دولتلو درويش باشا وكل من عطوفتلو قدرى افندى ولبيب افندى وحضرة الشيخ احمد اسعد افندى، إجراء التبليغات والتنبيهات الى عرابى باشا بأن يحضر الى دار السعادة، ويرجع عن مسلكه المعوج، الذى سلكه على غفلة من الأهلين، وذلك حتى لا تكون الدولة العلية، مضطرة لاجراء الحركات العسكرية العنيفة، فى حق الأفراد من الأهالى الذين يتبعون قوله لجهلهم، وعدم معرفتهم الخير من الشر

أما الوفد، فقد أبدى ما بوسعه من النصائح الدينية والشرعية والعقلية المناسبة لظروف الحال، ولم يكن جواب عرابى لذلك كله الا ثباته فى سلوكه المعوج، وتمادى فى تمرده الى أن قال : ان كل من أتى القطر المصرى من أجنبى وغيره، حتى ذات العساكر العثمانية، فهو يقابلها بالقوة، ولا يرضى بدخولهم البلاد . وقد عرض لدينا ذلك الوفد العثمانى بتقرير رسمى موقع من الجميع

ولا يخفى ما يحصل من وخامة العاقبة، عن تعدى المومى اليه لتشكيل هيئة مخصوصة لادارة البلاد ضد الحكومة الشرعية . وما أجراه عرابى باشا قبل التهديدات التى حصلت له من الانكليز، كتنويهه بمقاومة العساكر الشاهانية بالسلاح، ومطلق حركاته الأخرى، كلها أمور تستدعى معاقبته بأشد العقاب . ومع ذلك، كما استعطف الحضرة

الخديوية الجليلة ، فطلب العفو والتجأ الى المراحم السنية ، وأعطى التأمينات الى دولتلو درويش باشا رئيس الوفد عنه وعن العساكر المصرية ، كما جرى الاعلان فى أوراق الحوادث ، نال التعطفات ، ولأجل تأمينه وتوثيق انقياده وصداقته ، أحسن اليه بالنيشان العالى طبقاً لانهاء درويش باشا المشار اليه . أما عرابى فلم يعرف قدر تلك الألطاف ، وجهل مزيتها ، فاصر على أفكاره السقيمة وحركاته المضادة للشرع المنيف ، ببث واعلان البغى والعصيان وعليه فهو باغ عاص

وليعلم الجميع ، ان الجناب الخديوى هو أمين السلطنة ومعتمدها ، وهو أعظم أركان الدولة العلية . فحفظ حيثيته الذاتية ، وما حازه من الامتياز والاقتدار ، انما هو من الأمور الملتزمة . وما أجراه عرابى باشا وتجاسر عليه من اجراء تلك الحركات ، مغاير للرضى العالى ، فبغيه وعصيانه ، هما نتيجة أفعاله وأعماله . أما الحضرة الخديوية فنفوذها مؤيد وامتيازها مقرر من الدولة العلية »

وقد ذاعت أنباء الثورة العرابية فى كل قطر ، وشغلت أذهان الشرقيين قاطبة ولا سيما الشعب الهندى ، حتى علمنا ان السفارة الانجليزية فى الاستانة ، ابتاعت من صاحب جريدة « الجوائب » التى كانت تصدر يومئذ باللغة العربية ، مليون نسخة من العدد الذى نشرت فيه ترجمة الارادة السلطانية ، التى أعلن فيها عصيان عرابى ، لكى توزعها فى الهند وتستعين بالاثر الذى تحدثه على اخماد حركة التشيع للعرابيين ، وكانت قد اضطربت هناك بشكل ينذر انجلترا بشر العواقب .

وفى وقت اعلان عصيان عرابى أرسل السلطان ٦٠٠٠ جندى الى فرضة صوداء بكريد ، لارسالها لمصر عند اتفاقها (١) مع انجلترا ، على مشاركة هذه الجنود للقوة الانكليزية .

---

(١) وقد علمنا ان الاتفاق كان ينص على :—

أولا — يؤلف الجيش العثمانى من ٥ الى ٦ آلاف رجل ولايجوز زيادة الا برضى الدولتين

ثانياً — ان حركات الجيش العثمانى واجراءاته ستنظم فيما بعد على وجه يرضى به رؤساء قواد عساكر الدولتين

ثالثاً — تنزل العساكر العثمانية الى البر من أبى قير أو رشيد أو دمياط

رابعاً — ينضم الى الجيش العثمانى مندوب انكليزى والى المعسكر الانكليزى مندوب عثمانى وذلك ضمانة للاتحاد بالعمل المقتضى اجراؤه

خامساً — ينجلى الجيشان (العثمانى والانجليزى) عن القطر المصرى فى آن واحد وانما يرخص للعساكر العثمانية إطالة مدة الاحتلال إن كان ثم لزوم لذلك برضى متبادل بين الدولتين

ولكن لم يتم هذا الاتفاق نظراً لاندحار العرابيين فى واقعة التل الكبير كما أعلن اللورد دوفرين بذلك الباب العالى فى ١٧ سبتمبر

ولما وردت البرقية فى ١٥ أغسطس بوصول هذه القوة التركية ، فرحنا لهذا الخبر

ومما ساعد أيضاً على نجاح الانجليز ، ان الجناب الخديوى عين محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب مندوباً خديوياً ، وبمعيته بعض ياوران سموه، لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الدعـــوة ، وخصوصاً بين العرب ، لمساعدة الجيش الانجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديو . أضف إلى ذلك الهبات المالية التى كان الانجليز يغدقونها على العربان ، وخصوصاً الذين قيدوا منهم بقلم الاستعلامات الانجليزى

ونذكر أن جريدة فرنسيه محلية ، نشرت فيما بعد صورة رمزية فيها يد ضابط انجليزى تلوح بين أصابعها بجنيه من الذهب ، وتحتها يد أحد العربان مبسوطة لالتقاطه



يد أحد العربان تلتقط جنيها من يد ضابط انجليزى

وفى ٢٢ أغسطس ، أصدر الخديو إلى الدوائر الملكية والعسكرية فى القطر المصرى ارادة أخرى قال فيها :— « لما كان الغرض الوحيد من الأعمال العسكرية التى يقوم بها السير جارنت ولسلى ، هو استتباب الامن فى مصر ، فنحن قد صرحنا له باتخاذ التدابير العسكرية التى يرى لزوماً لاتخاذها . فيجب عليكم حال وصول أمرنا هذا إليكم ، أن تبذلوا له المساعدات اللازمة ، وتطيعوا أوامره كما لو كانت صادرة منا ، فمن يخضع له ، كانه خضع لنا شخصياً ، ومن خالفه يعد عاصياً لنا ، ويعامل معاملة العاصى . وقد أصدرنا أمرنا هذا إليكم للعمل بمقتضاه »

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ، أنه لما يئست انجلترا من الحصول على تفويض من الدول التى اشتركت فى مؤتمر الاستانة ، لقمع الثورة العرابية ، وعجزت عن الاتفاق مع فرنسا أيضاً على ذلك ، أعلنت انها تحارب العرابيين باسم الخديو ، لردهم إلى طاعته . وان الجيش الأنجليزى الزاحف على مصر ، انما هو جيش خديو مصر ، كما يفهم من التصريحات الواردة فى المنشورات التى أصدرها الخديو والاميرال سيمور والجنرال ولسلى

نظارة شريف باشا . وفى ٢٨ أغسطس ، وبعد ان اقال الخديو نظارة راغب باشا دعا سموه شريف باشا وباحثه فى تأليف نظارة جديدة تحت رآسته . فقبلها على المبادىء التى أوردها بعريضته التالية :—

« أتشرف بأن أعرض لسموكم ، أن إيعازكم الى بتأليف نظارة جديدة فى مثل هذه الظروف ، إنما هو دليل استدامة ثقتكم فىَّ . وأننى بالامتثال لأمركم الكريم ، أبرهن على إخلاصى لوطنى ولشخصكم الكريم

إن المبادىء التى عرضتها على سموكم منذ سنة ، لا تزال هى عينها موضوع اهتمامى ، فان غايتنا القصوى هى سعادة الوطن مادياً وأدبياً . أما الوسائط التى يجب اتخاذها لذلك ، فهى تعميم المعارف ، ونشر لواء العدالة ، وتوسيع نطاق المبادىء الحرة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية . وكما أنه لا يلزم أن يتجاوز حدود لوائح ديسمبر الماضى ، كذلك لا ينبغى لنا أن نحذف منها شيئاً

ومن الواجب ، أن يتجه اهتمامنا كله الى موضوع واحد ، وهو صيانة البلاد . وعليه فانى استدعى للاشتراك فى ذلك كل ذى غيرة وقلب مصرى ، مخلص لذاتكم الشريف »

فرد عليه الخديو بالخطاب الآتى : — « إننا نوافق تماماً على المبادىء التى عرضتها علينا، من حيث وجوب اتجاه الأفكار والقلوب الى تقدم البلاد مادياً وأدبياً ، والتوسل الى ذلك بالوسائل الواردة فى كتابك ، وأنه لا بد فى زمن الاضطراب هذا ، من بسط سلطتنا على الشعب ، وإدارة الأعمال ، وجعلها اشد تأثيراً واكثر وضوحاً . لذلك فاننا نستدعى عند الاقتضاء ، التئام مجلس النظار برياستنا ، للبحث فى المسائل المهمة خارجية كانت أو داخلية . وبما أن لنا السيادة العليا على القوات البرية والبحرية ، فتنفيذ أوامرنا يجب أن يتم من غير أن تمس اختصاصات ناظر جهاديتنا

ولنا وطيد الأمل ، أن عهد نظارتك سيكون للبلاد فاتحة عصر جديد ، نشترك فى رفعها الى أعلى ذرى التقدم والفلاح .... الخ »

وكان رياض باشا فى مقدمة من يخشون بطش العرابيين وقد غادر مصر الى أوربا ، ومكث فيها منذ اضطرمت نار الثورة العرابية ، حتى استدعى بالتلغراف ليتولى نظارة الداخلية فى هذه النظارة

وبدأت النظارة الجديدة عملها ، بأن استصدرت إرادة خديوية ، وجهت الى جميع سكان القطر ، تنعت فيها حركة عرابى بأسوأ النعوت ، ونوه فيها بحسن نية انجلترا ، وأن تدخلها إنما هو فقط لقمع الثورة ، لأن لها مصالح كبرى فى هذه البلاد ، ولا سيما فيما يتعلق بترعة السويس ، التى هى طريقها الوحيد الى الهند ، وطلب الى المصريين أن يعاونوا الجيش الانجليزى على أداء مهمته

مسألة حياد قناة السويس . وقد خشى عرابى ، أن يقدم الانجليز على خرق حياد قناة السويس ، فعزم على ردمها ليطمئن من هذه الناحية ، وأوعز الى محمود باشا فهمى ، فوضع تصميماً لذلك ينفذ فى أربع وعشرين ساعة ، بنسف جوانبها بالديناميت

وكان دولسبس بعد تدمير طوابى الاسكندرية موجوداً فى بورسعيد، وعلم بنوايا عرابى حيال القناة ، فكتب إليه تلغرافاً فى ١٤ يوليو يستعلم فيه عن مركز القناة بالنسبة للحركة الحربية . فأجابه عرابى فى التاريخ المذكور قائلا : بأنه يعتبر القناة من المنافع العمومية الدولية ، ولذلك فانه لا يتعرض لها بضرر ، اذا أمكنه (دولسبس) منع المراكب الحربية الانجليزية من خرق حرمة الحياد ، وامتهانها لقانون الشركة بدخول القناة، وإلا فسيضطر لأن يقابلهم بالمثل

فرد عليه فى التاريخ المذكور تلغرافياً ، بأنه يضمن ويتكفل بمنع الانجليز من اقتحام القناة ، ما دام فيه عرق ينبض

ولم يكتف دولسبس بذلك ، بل غادر بورسعيد الى القاهرة لمقابلة عرابى ، وأقسم له بشرفه أنه سيقوم على حراسة القناة ، وسيكفل حيادها التام ، لأنه اتفق مع الحكومة الفرنسية على وقف قواها لحفظ ذلك الحياد ، وأنها مصممة على أن تحول دون اجتياز العساكر الانجليزية لها ، ونزولها الى البر ، مهما كلفها ذلك . فاغتر عرابى بهذه الوعود ، ووثق بها ، وصرف اهتمامه الى حصر المقاومة العسكرية فى جهة كفر الدوار ، وعدل عن نسف القناة وتحصين منطقة السويس ، اعتماداً على حيادها

واستغل الجنرال ولسلى ذلك الظرف . فصمم على مهاجمة العرابيين من هذه المنطقة وأمر الأسطول باجراء مناورة بحرية لمخادعة العرابيين

وكنا نرقب حركة هذا الأسطول ، فوجدنا بعض السفن تغادر ميناء الاسكندرية متجهة الى أبى قير ، ولكننا شاهدناها تتحول فى المساء الى جهة بورسعيد

ولما كانت أخبار الحركات العسكرية هنالك ترد إلينا تباعا ، ونحن فى سراى رأس التين ، علمنا أن مركباً انجليزياً مسلحاً دخل القناة فى صباح ١٩ أغسطس ، واضطر السفن الراسية فيها الى الخروج منها

ولما اعترض دولسبس على خرق حياد قناة السويس ، لم يقف الأميرال هوسكس عند اعتراضه ، وأجابه بأن مياه بورسعيد وبحيرة التمساح من المياه المصرية ، وأن العلم المصرى يخفق على المدينة ، وأنه مصرح له من الخديو بأن يحتل جميع المواقع التى يرى احتلالها لازماً للتمكن من قمع الثورة العرابية

وفى مساء ذلك اليوم ، جاءتنا الاخبار باحتلال الانجليز لمدينة الاسماعيلية ، واطلاق المدرعات الانجليزية مدافعها على العرابيين فى نفيشة

وهكذا تم للجنود الانجليزية الاستيلاء على القناة بلا كبير مقاومة

وقد صرح دولسبس فيما بعد ، بأن وعوده لعرابى كانت من خوفه أن ينزل العرابيون ضرراً بالقناة ، فلما رأى ان القوات الانجليزية كافية لحمايتها من كل خطر ، اطمأن باله وكف عن المعارضة

القتال فى منطقة القناة . ظــل الجيش الانجليزى جادا فى قتال العرابيين

ومطاردتهم جهة القناة ، لأنهم كانوا قد قطعوا المياه العذبة عن الاسماعيلية وبورسعيد والسويس ، بواسطة سد على الترعة الحلوة أقامه محمود باشا فهمي

وكانت طلائع جيش عرابي مؤلفة من متطوعي العربان ، الذي لا يهمهم من الحرب الا ان تتاح لهم فرصة النهب والسلب ، وكان منهم جماعة من المنتمين لسلطان باشا ، فاستمال أفرادا منهم إلى جانبه ، وعهد اليهم بتوزيع اعلان الباب العالي الخاص بعصيان عرابي مع المنشورات الخديوية ، والتجسس على العرابيين والحصول على أخبارهم وتعريف سلطان باشا بها ، لارسالها بالبرق إلى سراى رأس التين. فاندسوا بين الضباط العرابيين خفية وقاموا بمهمتهم . وقد علمنا أنه وصل إلى عرابي وهو في معسكره، نسخة من اعلان الباب العالي فاطلع عليه عبدالله نديم وأشار هذا بنشره في جريدته مع الاحتجاج عليه ، ولكن عرابي آثر اخفاء خبره

ولما علم عرابي بذيوع الاعلان السلطاني والمنشورات الخديوية بين جيشه في التل الكبير، جمع الضباط لاستطلاع آرائهم فيما يجب اتخاذه ، فقررت الأغلبية الاستمرار في الدفاع عن البلاد . وكان هذا القرار ضرباً من المجاملة فقط . أما الحقيقة، فهي ان الضباط كان قد استولى الوهن على عزائمهم على أثر ما قرأوه وعلموه . ومنهم من انضم إلى الجيش الانجليزي عملا بارادة الخديو واذعانا لأمره (١)

وعلمنا ان العرب الذين كانوا في مقدمة العرابيين في نفيشه ما كادوا يواجهون الجنود الانجليزية الزاحفة عليهم ، حتى دب الفزع إلى قلوبهم وولوا الادبار ، فكانوا سبباً في انهزام مقدمة الجيش العرابي

وقرأنا في التلغرافات الواردة للمعية يوم ٢٣ أغسطس انه بينما كان العرابيون يقيمون الاستحكامات بجوار المسخوطة دهمهم الانجليز ، وكانوا يريدون قطع خط الرجعة عليهم ، فشب القتال بين الجيشين ورجحت كفة الانجليز ، واستولوا على بعض المواقع رغم كثرة العربان ، وكادوا يدركون غرضهم ، لولا أن وصل مصطفى باشا فهمي بالجند لانجاد راشد باشا حسني(٢) قائد هذه المنطقة ، فحمل على الانجليز حملة صادقة

---

(١) ومن ذلك أن أربعة من الضباط المصريين الذين كانوا في خط أبي قير ، استأمنوا وتوجهوا الى قائد الفرقة الانكليزية . فأتى بهم الى سمو الخديو وأعلنوا خضوعهم في ١٠ سبتمبر

(٢) كان راشد باشا حسني من اشهر قواد الجيش المصري وقد أبلى بلاء حسناً في الوقائع الحربية التي خاض غمارها في حروب الدولة العلية مع أعدائها في ذاك الوقت على رأس الفرقة التي كان يقودها في زمن الخديو اسماعيل .

واجلاهم عن المواقع التى احتلوها ، ولكن عاد الانجليز فهجموا عليه واضطروه الى الجلاء عن تلك المواقع واحتلوا المخفر فى ٢٤ اغسطس



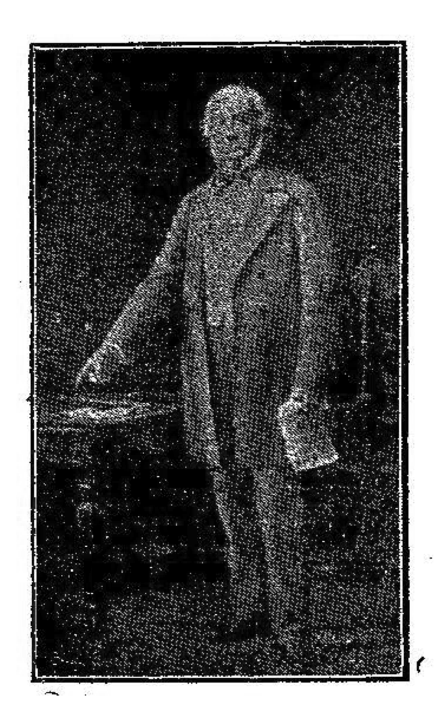
راشد حسنى باشا

وكان محمود باشا فهمى ناظر الاشغال ، قد وصل إلى ساحة القتال فى أثناء انهزام العرابيين ، ليراقب السدود التى وضعها على الترعة الحلوة ، فوقع أسيراً فى أيدى الانجليز ، وأرسلوه الى الاسكندرية ، حيث رأيناه سجيناً فى سراى رأس التين، فأمر الخديو بارساله إلى المحافظة لاقامته بها ، وأوصى بحسن معاملته . وكان ذلك فى يوم أول سبتمبر

ولكن علمنا بعد ذلك من الاخبار التى وردت من العاصمة على لسان الذين تمكنوا من الرجوع إلى الاسكندرية ، ان العرابيين اذاعوا فى البلاد انباء كاذبة، زعموا فيها انهم انتصروا على الانجليز وهزموهم شر هزيمة فى جهة القناة

ثم تقدمت القوات الانجليزية واستولت على المسخوطة فى ٢٥ اغسطس استولت على المحسمة والقصاصين فى ٢٦ منه ، وازالت السدود التى وضعت لمنع وصول المياه الحلوه إلى منطقة القناة

وفى ٢٨ أغسطس ، هجمت قوة كبيرة من العرابيين على الجنرال جراهم لاسترداد موقع السدود والقصاصين وهددت جناحه الأيمن ، وأوشكت أن تبلغ غرضها ، ولكن الجنرال تلقى نجدة مكنته من الحملة على العرابيين ، وارغامهم على التقهقر بعد تكبدهم خسائر عظيمة تقدر بنحو أربعة آلاف قتيل فى الموقعتين ، وكانت الجند الهاربة تلقى بنادقها فى الترعة الحلوة ،


جلادستون

تصريح جلادستون . وقد اهتم مجلس العموم البريطانى بطبيعة الحال بحوادث مصر ، ففى يوم ٢٧ أغسطس طلب اللورد الكو والسير وولف توقيف الحركات العسكرية فى القطر المصرى ، والاقتصار على صون قناة السويس والمحافظة على حياة الخديو . وسألا عن غاية الحكومة البريطانية من أعمالها فى مصر ، فألقى المستر جلادستون رداً جاء فيه :— « مع انى اؤمل بأن المجلس لا يوافق على طلب زميلى المحترمين ، فانى لا أتأخر عن امتداح ميلهما لتأييد حرية الشعب المصرى . . . و . . الخ الى ان قال :

« لا أرى بدا من اجابة زميلى على سؤالهما ، عما إذا كانت حكومة جلالة الملكة ترمى إلى احتلال القطر المصرى إلى أجل غير محدود — فأقول ، ان هذه الفكرة لم تخطر لنا قط ببال « استحسان » وان أمراً كهذا مخالف لمبادىء ومقاصد الحكومة الانجليزية ومخالف لتعهداتنا أمام أوروبا ، ولمقاصد أوروبا نفسها « استحسان . »

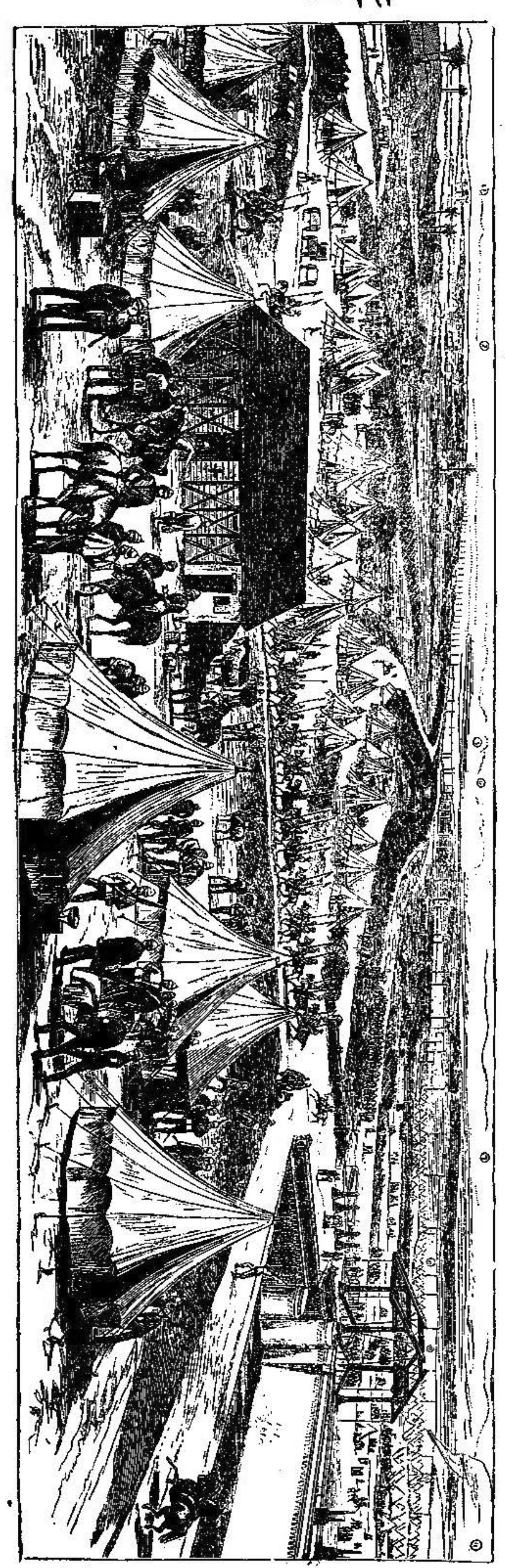
ولما قرأنا التلغرافات التى وردت بخلاصة هذه المناقشة اطمأننا نوعا إلى نيات الانجليز

واقعة التل الكبير . بعد ان تم للانجليز احتلال القناة ، والاستيلاء على القصاصين ، وإزالة السدود التى أقامها العرابيون على الترعة الحلوة ، وضعوا خطة الهجوم على التل الكبير . وكان عرابى قد نقل إليها معظم قواته التى كانت فى كفر الدوار . وقد تلقى الانجليز المعلومات اللازمة عن مواقع العرابيين ، وعلموا أن جيشهم مختل النظام تنقصه الدربة ويعوزه كثير من المعدات الحربية والفنية ، حتى انه بلغنا بعد انكسار العرابيين ، ان محمود باشا البارودى ، قائد فرقة الصالحية ، لم يجد منظاراً يستخدمه للاستكشاف

ومما علمه الانجليز أيضاً أن العرابيين أهملوا الطريق بين الصالحية والتل الكبير ، وتركوه خالياً من نقط الدفاع ، فكان ذلك كله من العوامل التى مهدت السبيل لانتصارهم

وبينما كنا فى سراى رأس التين ننتظر أخبار الجيش الانجليزى — وكانت قد انقطعت عنا منذ بضعة أيام — اذا بتلغراف من سلطان باشا الى الخديو ينبئه فيه، بتأهب الانجليز للزحف على التل الكبير. وقد أثر هذا النبأ فى نفوسنا تأثيراً عميقاً، حتى أننا لبثنا من بعده ليلتين فى منتهى القلق والجزع تتجاذ بنا عوامل اليأس والرجاء، منتظرين نتيجة هذا الزحف على أحر من الجمر.

وفى صباح ١٣ سبتمبر، وصل الى السراى تلغراف آخر من سلطان باشا يقول فيه :— « انه حصل الهجوم على استحكامات التل الكبير فى فجر ذلك اليوم، وأن القتال كان قصيراً، ولم يطل أكثر من عشرين دقيقة، وأنه أسفر عن انهزام العرابيين شر هزيمة بعد أن قتل منهم ألفان، وأسر مثل هذا العدد، وأن الغنائم كثيرة »



معسكر الانجليز فى القصاصين

وما كاد هذا الخبر يذاع فى الاسكندرية حتى هرع الى سراى رأس التين جمهور كبير من كبار المصريين والأجانب ، لتهنئة الخديو بانخذال العرابيين . وقد رأيتهم بنفسى محتشدين فى فنـاء الطبقة العليا من السراى ، وهم يهتفون لسموه وللانجليز . وقد بلغ التحمس والسرور ببعض الأجانب أنهم كانوا يخلعون قبعاتهم ويقذفون بها الى السقف ابتهاجاً بهذا الانتصار .

أما توفيق ، فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن انكسار العرابيين يؤول الى توطيد عرشه ، فقد عز عليه أن يتم له ذلك على يد الأجانب ، وعلى حساب بلاده ومذلة شعبه . وقد كان سموه من الأمراء الذين تصبو نفوسهم الى عروش وطيدة الأركان ، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها ، وليس الى عروش واهية ، قائمة على رءوس الأسنة وشفا السيوف . ولذا كان الارتيـاح الذى بدأ على محيـاه بانهزام العرابيين مشوباً بالحزن . وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة ورود البرقية معبرة عن شعوره أصدق تعبير .

وتفيد التفاصيل التى وردت على السراى فى صباح اليوم التالى، أن الانجليز علموا فى مساء ١٢ سبتمبر ، بواسطة عيونهـم ، أن العرابيين منصرفون الى إقامة الأذكار ، فرأوا ، بعد طول الانتظار ، أن الفرصة سانحة لمداهمتهم تحت جنح الظلام ، فتربصوا حتى منتصف الليل ، ثم زحفوا لقتالهم بأحد عشر ألفاً من البيادة وألفين من السوارى وستين مدفعاً ، وكان فى مقدمة جيشهم بعض ضباط أركان حرب من المصريين، وكذا جماعة من عرب الهنادى . وكان جيش العرابيين مؤلفاً من عشرين ألفاً من البيادة ، وألفين وخمسمائة من السوارى ، وستة آلاف من العربان ، وكان مجهزاً بسبعين مدفعاً .

وبدأ الزحف من القصاصين فسار الانجليز دون أن يشعر بهم محمود باشـا سامى البارودى قائد فرقة الصالحية ، فلم يلقوا أية مقاومة لا من جانبه ولا من جانب مقدمة العرابيين ، التى يقودها على بك يوسف (خنفس) ، وكان عرابى كلفه أن يوافيه بالأخبار يوماً فيوماً عن حركات الانجليز ، فبعث إليه فى ١٢ سبتمبر يقول: — « إن السكون سائد فى معسكرات العدو » فاغتر عرابى بذلك وأصدر أمره الى الجيش بالتزام الراحة ، فصرف الجنود ليلتهم فى الأذكار تحت إشراف الشيخ عبد الجواد ، الذى كان مشهوراً بالورع والتقوى

وما برح الانجليز يتقدمون والعرابيون فى غفلة عنهم مستغرقين فى نومهم ، حتى بلغوا استحكامات التل الكبير ، فأمطروهم وابلا من الرصاص ، فاستيقظوا

مذعورين وولوا الأدبار لا يلوون على شيء ، تاركين أسلحتهم وذخائرهم ، ولم يتخلف إلا السودانيون فانهم هبوا من مرقدهم للدفاع عن أنفسهم ، واستماتوا فى القتال حتى فنوا عن آخرهم

ومن التفصيلات التى وردت الى السراى أيضاً ، أن عرابى قد استيقظ على قصف المدافع ، فخرج من خيمته مستطلعاً ولما شهد الفشل الذى حل بجيشه ، حاول أن يستوقف الفارين ويستفزهم الى القتال والدفاع ، ولكن الذعر كان قد دب فى قلوبهم فعندئذ لجأ عرابى الى الفرار لينجو بنفسه ، فامتطى جواده مصحوباً بعبد الله نديم ، وتوجها الى الزقازيق ومنها الى أبى حماد ، حيث ركبا القطار الى القاهرة ، ولم يستطع الفرسان الانجليز إدراكهما .

ومن المضحكات المبكيات ، أن صديقى المرحوم البمباشى حسن رضوان ، قومندان الطوبجية فى استحكامات التل الكبير ، أخبرنى أنه فى مساء ١٢ سبتمبر دخل عليه فى الطابية أحد أرباب الطرق الصوفية وبيده ثلاثة أعلام ، وتقدم الى أحد المدافع فرفع عليه أحدها وقال : ـ هذا مدفع السيد البدوى . ثم انتقل الى مدفع آخر فوضع عليه علما ثانياً وقال : ـ إنه لسيدى ابراهيم الدسوقى . ثم الى مدفع ثالث وقال : ـ إنه مدفع سيدى عبد العال . قال صديقى : ـ ولكن لم يمر على ذلك بضع ساعات ، حتى صارت هذه المدافع لولسلى ! !

وقسم الجنرال ولسلى جيشه الى قسمين اقتفيا أثر الفارين ، أحدهما سلك طريق الزقازيق ، والثانى سلك طريق بلبيس

ثم أمر جنوده بالمحافظة على القوة التى كانت محتمية فى الطابية الرئيسية على شمال خط استحكامات التل الكبير ، إذ بلغه أن فيها ضابطاً فرنسياً ، فلما وصل إليها سأل عن هذا الضابط وعن قائد الطابية ، فأجاب حسن رضوان بأن ليس فيها ضابط فرنسى ، وأنه هو نفسه الذى يتولى قيادة حاميتها ، فدهش الجنرال لجوابه هذا وسأله : ـ أين تعلمت الفنون العسكرية . فأجاب : ـ فى مصر . فقال : ـ وهل عندكم من المعلمين من حذق الفنون العسكرية الى هذه الدرجة ؟ ـ فأجاب : ـ تعلمت على لارميه باشا الفرنسى

ثم سأله الجنرال عن المدافع التى استعملها الجيش الانجليزى فى هذه الواقعة ، فأجابه أنها من نوع « ارمسترونج » ، وأنها تختلف عن المدافع التى استعملها هو . فأعجب

الجنرال به ، وترك له سلاحه . ولما كان حسن رضوان قد أصيب فى هذه المعركة بجروح بعد ان أبلى البلاء الحسن هو والمشاة السودانيون ، فقد أمر ولسلى بالاعتناء به وبمرؤوسيه من الضباط ، ونقل إلى خيمة خاصة ، عولج فيها مدة ثلاثة أسابيع إلى ان شفى وسافر إلى القاهرة (١)

حسن رضوان

احتلال القاهرة . فى ١٤ سبتمبر رفع شريف باشا الى الجناب العالى خطاباً موقعاً عليه من بطرس (باشا) غالى ورؤوف باشا ، يعلنون فيه خضوع الجيش وضباطه لسموه . ثم ورد خطاب آخر منهما ، وفيه انهما قدما إلى كفر الدوار فى طريقهما إلى الاسكندرية ، لتقديم الطاعة لسموه بالنيابة عن سكان العاصمة . فأمر الجناب العالى أحد رجال معيته بموافاتهما إلى كفر الدوار ، ومرافقتهما إلى سراى رأس التين ، حتى تسمح لهما القوات الانجليزية هناك بالمرور

وقد علمنا عند وصولهما إلى السراى ، أنه لما جاء عرابى إلى القاهرة بعد فراره من التل الكبير ، عقد المجلس العرفى فى قصر النيل ، وأخبره بانهزام الجيش ، وطلب إليه أن يبدى رأيه فى مواصلة القتال أو التسليم . فاستقر الرأى على المقاومة ، وألح الأمير احمد كمال عليه فى ذلك . ولكن هذا القرار كان مجاملة فقط لعرابى ، إذ كانوا يستشعرون منه الميل الى الاستمرار فى الدفاع

على ان عرابى ما كاد يصل إلى العباسية مع مرعشلى باشا وغيره من الضباط ، لاختيار

---

(١) ولم يكن ذلك أول عهد الطوبجية المصرية باحكام الرماية . فان ما ابدته من ضروب المهارة وتسديد المرمى فى حرب الترك مع الروس قد رفعها فى نظر رجال الفن العسكريين الى مصاف المدفعيات الأوروبية الحديثة . ولما سأل الطبيب الذكر بشاره تقلا الجنرال ولسلى بعد دخوله العاصمة عن رأيه فى الجيش المصرى أثنى على الطوبجية وقال : — انها تكاد تضارع الطوبجية الأوروبية .

المواقع الملائمة للدفاع ، حتى تجلت له الحقيقة ، وعلم أن باطن القوم غير ظاهرهم . ولقد خاطبه خليل بك يكن أحد كبار الضباط بجفاء ، فقال له :ــ « إنك بجهلك وسوء تصرفك أحرقت الاسكندرية ، وأرقت الدماء ، فهل تريد الآن أن تحرق العاصمة ، وفيها أطفالنا ونساؤنا وأملاكنا وأرزاقنا ! ! إعلم أن لا أحد من إخوانى الضباط يوافقك على خطتك ، وثق بأنك لاتجد منا مساعدة ، فكفى ماحاق بنا وبالبلاد من المحن والبلايا »

والتفت عرابى إلى الضباط فاذا ملامحهم تنطق بما يدل على موافقتهم على كلام زميلهم ، فأيقن أنهم خذلوه وعاد كئيباً يائساً . ثم اجتمع ببعض أصدقائه وتباحث معهم فى الأمر ، فاستقر الرأى على التسليم ، ورفع العريضة التى أشرنا إليها بواسطة بطرس (باشا) غالى ورؤوف باشا .

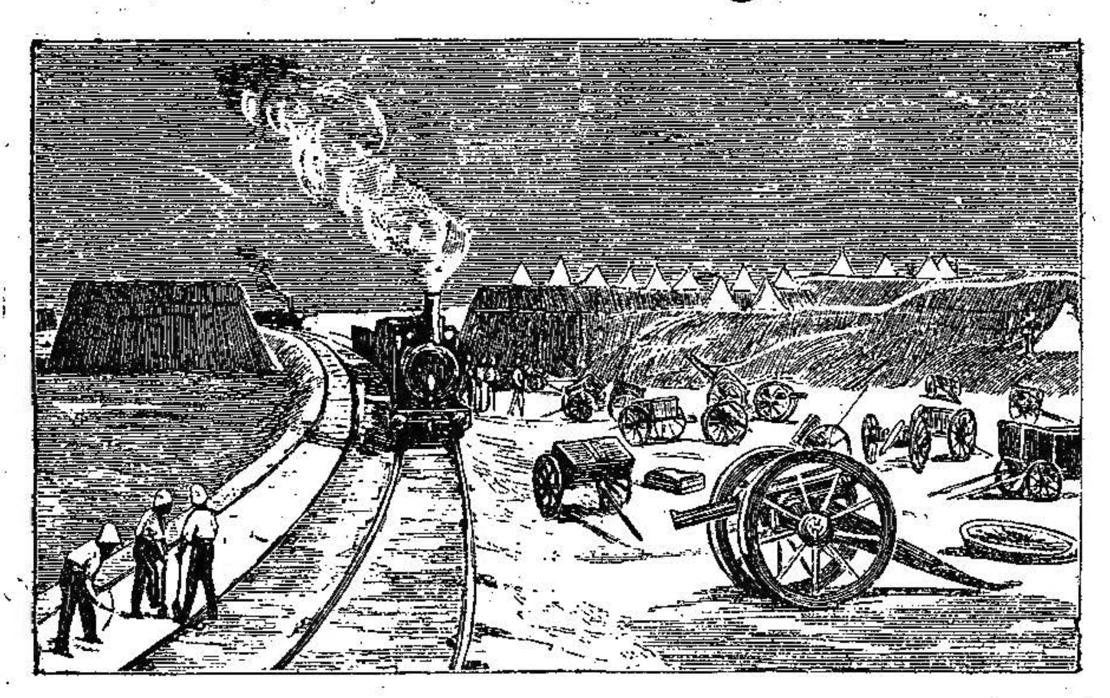
وفى يوم ١٤ سبتمبر ، علمنا أن الفرسان الانجليز وصلوا إلى العباسية بقيادة الجنرال درورى لو



سير درورى لو

وفى يوم ١٥ منه ، دخل الجنرال ولسلى العاصمة ، ونزل فى سراى عابدين مع أركان حربه ، بأذن الخديو، ثم لحقت به فرق الجيش تباعاً ، وبذا تم الاحتلال البريطانى لمصر

أما فى كفر الدوار وغيرها من مراكز الدفاع ، فانه لما شاع خبر انهزام عرابى واندحار جيشه فى التل الكبير ، انفرط عقد الضباط وتخلوا عن مراكزهم ، وطرح الجنود أسلحتهم ، وولوا هاربين إلى بلادهم . وتوجه الجنرال «وود» مع أركان حربه إلى عزبة أصلان ، أول معسكر العرابيين ، وصحبهم إليها بعض الضباط المصريين موفدين من لدن الخديو ، ومن ضمنهم صديق (المرحوم) محمد نسيم بك ، فخضع لهم من لم يكن قد ترك مركزه من ضباط الموقع ، وسلموا أسلحتهم ، وأمر الجنرال وود بنسف الاستحكامات ، وجمع الأسلحة المبعثرة التى تركها الجنود قبل فرارهم



السير إفلين وود بكفر الدوار

وعلى هذا المنوال ، تم إخضاع الجيش العرابى ماعدا حامية دمياط ، وكانت تحت قيادة عبد العال حلمى (أبو حشيش) ولم يكن يعلم ان التل الكبير قد سقط فى أيدى الانجليز ، فحاول المقاومة ، ولكنه عاد فأيقن ان العاقبة ستكون وبالا عليه ، إذ يعاقب رمياً بالرصاص ، فاستسلم يوم ٢١ سبتمبر إلى الانجليز وتخلى لهم عن القلعة

أما محمود باشا سامى البارودى ، فقد خطر له بعد هزيمة التل الكبير أن ينتقل بجيشه إلى الصعيد ، حتى إذا عجز عن الدفاع فيه لجأ إلى السودان . ولكن عرابى لم يوافقه على هذا الرأى